

الشام في عيون عشاقه: ولكلُّ وجهةٌ

إن خصائص الأرض الجغرافية والمناخية والبشرية والروحية ذات تأثير كبير في إقامة المجتمعات وبناء الحضارات، وحرص الناس على تعمیرها والاستيطان فيها . . وليست ديار الشام كغيرها من البلدان، فهي ذات منزلة عظيمة في قلوب العابدين، وفي قلوب الذين يزورونها متطلعين إلى زينة الحياة الدنيا؛ تحقيقاً لقول الله تعالى القديم الأزلّي: ﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾، قال الزمخشري: ﴿ بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ يريد: بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبّد الأنبياء، ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وحول المسجد الأقصى: بلاد الشام. وقال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَخَجِنْتُهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 71]، قال المفسرون: الأرض التي باركنا فيها للعالمين: بلاد الشام، وبركاته الواصلة إلى العالمين، وأن أكثر الأنبياء ⁽¹⁾ بُعثوا فيه، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينيّة، وهي البركات الحقيقيّة [عن الكشاف/ سورة الأنبياء].

وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والتمر والخصب، وطيب عيش الغني والفقير.

وروي أن إبراهيم عليه السلام خرج من العراق إلى الشام، فقيل له: إلى أين؟ فقال: إلى بلد يملأ فيه الجراب بدرهم.

(1) القول بأن أكثر الأنبياء بُعثوا في الشام لا يستقيم تاريخياً، إذا قصرنا القول على الأنبياء المذكورين في القرآن (25 نبياً)، فالأكثرية منهم بُعثوا في غير الشام، أو في أماكن مجهولة: 1- محمد: في الحجاز. 2- موسى: في مصر. 3- إبراهيم: في العراق. 4- إسماعيل: في مكة. 5- يوسف: في مصر. 6- يونس: في العراق. 7- شعيب: في مدين. 8- صالح: في العِلا. 9- هود: في حضرموت. 10- إدريس: لا يُعلم مكانه. 11- سليمان: ليس في مكانه نصّ صحيح. 12- داود: ليس في مكانه نصّ صحيح. 13- هارون: في مصر. 14- نوح: لا نعلم مكانه. 15- ذو الكفل: لا يُعلم مكانه. 16- إلياس لا يُعلم مكانه. والباقي تسعة أنبياء فقط. ولكن الثابت: أن جميع الأنبياء بُعثوا في جزيرة العرب؛ والقائل بالأكثرية يدخل في الإحصاء: الأنبياء الذين لم يقصّ الله علينا قصتهم، وجاء ذكرهم في كتاب يهود وهو ليس حجة في أمور الدنيا، فكيف يكون حجة في قصص الأنبياء؟! والله أعلم.

قلتُ: ويمكن أن تجمع بين البركتين: الدينية والدينيوية: فهما ركنان لا ينفصلان، فالدنيا تحتاج إلى دين ينظمها، والدين يحتاج إلى الدنيا ليتقوى أهل الدين على عبادة الله. ولذلك، عندما أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل في واد غير ذي زرع (مكة) دعا ربه قائلاً: ﴿فَأَجْعَلْ أَرْضَهُ مِّنَ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

وقال المقدسي في كتاب «أحسن التقاسيم» يصف الشام: إقليم الشام جليل الشأن، فهو ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر⁽¹⁾، والمسرى⁽²⁾، والأرض المقدسة⁽³⁾، والرباطات⁽⁴⁾ الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة، ومهاجر إبراهيم وقبره، وديار أيوب وبثره⁽⁵⁾.

(1) إشارة إلى الأحاديث النبوية التي تخبر بأن أرض الشام أرض الحشر والمنشر. وقد جاء في الحديث: «الشام أرض الحشر والمنشر» [عن «فضائل الشام ودمشق» - للربيعي]، قال الألباني: حديث صحيح.

(2) أي: مسرى النبي ﷺ.

(3) إطلاق «الأرض المقدسة» على أرض الشام وفلسطين، ليس دقيقاً، وإنما أخذه المؤرخون من قصة موسى: ﴿يَقُومُوا آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، وقد بينا في فصل سابق: أن ابن عباس قال: هي الطور وما حوله في سيناء. والأرض المقدسة عند المسلمين هي مكة والمدينة. والديار المقدسة عند النصارى: القدس والناصرية وبيت لحم في فلسطين. أما بلاد الشام، فقد وصفها القرآن بأنها مباركة: ﴿بَنَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾. ﴿بَنَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

(4) الرباطات: مفردتها: الرباط. ولعله يريد بها هنا: ملجأ الفقراء ومأوى الصوفية، والرباط أيضاً: ملازمة الثغر الذي يمكن أن يأتي منه الأعداء، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً.

(5) يقول المحققون من أهل اللغة والتاريخ: أيوب، النبي الصابر، من أنبياء العرب قبل موسى، وهو من الأدميين العرب الذين نزلوا بين العقبة - على البحر الأحمر وبين نهر الحسا الذي يصب في البحر الميت -، وامتد ملكهم إلى بلدي الخليل، وبيت جبرين في فلسطين. وكان موطنه في الخراب التي تسمى: «العيص» في ظاهر الشوبك من أعمال عمّان، في شرقي الأردن، وقال الزركلي في «الأعلام»: «وسفر أيوب» في «التوراة» عربي الأصل، بما فيه من أسماء الأشخاص والأماكن، ومن وصف لبادية الشام، وحيواناتها، ونباتاتها. تُرجم من العربية إلى لسان يهود بعد زمن موسى، وقد يكون أصله العربي شعراً، كما يدل عليه أسلوبه. وأدباء الغرب شديداً العناية به، واسمه =

ومحراب داود⁽¹⁾، وبابه، وعجائب سليمان، ومُدُنُهُ⁽²⁾، وتربة إسحاق وأمه⁽³⁾، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره⁽⁴⁾، وموضع لقمان⁽⁵⁾، ووادي

= عندهم: «جوب» وقد لقبه فكتور هيجو: «بطيريك العرب»، وقال في كتابه عن شكسبير، وهو يتحدث عن العباقرة: إنَّ أيوب كان أديباً، وهو أول مَنْ جاء بأسلوب الفواجع، وقد ضاع شعره العربي، ولم يبق منه غير الترجمة العبرية المنسوبة إلى موسى.

وقال الأب لويس شيخو: ولنا شاهد في سفر أيوب على معرفة العرب لأسماء النجوم وحركاتها في الفلك، إذ كان أيوب النبي العربي الأصل عاش غربي الجزيرة؛ حيث امتحن الله صبره. وقال جواد علي في «تاريخ العرب قبل الإسلام»: من القائلين بأن أسفار أيوب عربية الأصل، والمتحمسين للدفاع عن هذا الرأي: المستشرق مارجليوث، وقد عالج هذا الموضوع بطريقة المقابلات اللغوية، ودراسة الأسماء الواردة في تلك الأسفار.

وأما بئر أيوب: فهو إشارة إلى قصة شفائه من المرض، فقد أوحى الله إليه أن يضرب برجله الأرض، فتفجر له منها الماء البارد، فأمره أن يشرب منه ويغتسل، فشفاه الله. . قلت: وأيوب: لم يذكر لنا القرآن أنه صاحب كتاب، وما نُسب إليه من الأسلوب الأدبي - إن صح - فهو من كلامه - والله أعلم.

(1) محراب داود: هو اسم فقط، وليس له واقع تاريخي. ذلك أن المسلمين سمو أجزاء من المسجد الأقصى، وأبوابه بأسماء بعض الأنبياء، وليس للأنبياء صلة بها: فمحراب داود، وباب داود، ومقام داود، وإسطنبول سليمان كلها أسماء للتمييز فقط. وربما تأثر المسلمون بالقصص التوراتي الكاذب المتعلق بقصة الهيكل الخرافية. ونحن نؤمن بداود وسليمان نبيين، ولكننا لا نعرف مكان بعثتهما، وكلّ خبر يوصلهما بالقدس والمسجد الأقصى من أخبار التوراة الكاذبة. . وإذا كان لنا أن نعمل العقل بمكان وجودهما، فإنه يكون في اليمن. والله أعلم.

(2) وعجائب سليمان لا نعرف مكانها، ومنذ سنة 1967م حتى اليوم سنة 2006م واليهود يتقنون تحت المسجد الأقصى، فلم يجدوا ذرة تقول إن سليمان رآها. والقول - كما في التوراة -: إنه بنى مدينة تدمر، كلام خرافي. وانظر ما قال ياقوت الحموي في ترجمتها في «معجم البلدان».

(3) وتربة إسحاق وأمه، قد تكون في فلسطين، وقد تكون في لواء الخليل، أما المغارة الموجودة تحت مسجد الخليل، فهي من رواية الأمم قبل الإسلام، وليس فيها سندٌ صحيح.

(4) قرية طالوت: يُقال: إنها قرية جبعة في ظاهر القدس. والله أعلم بالحقيقة.

(5) لقمان: قيل: هو ابن أخت أيوب، أو ابن خالته. والله أعلم.

كنعان، ومدائن لوط، وموضع الجنان، وقبر مريم وراحيل⁽¹⁾، مع مشاهد لا تحصى، وفضائل لا تحفى، وفواكه ورخاء، وأشجار ومياه، وآخرة ودنيا، به يرقّ القلب، وتنسبط للعبادة الأعضاء.

وقال المقدسي في وصف كورة فلسطين من الشام: اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثون شيئاً، ولا تجتمع في غيرها: فالسبعة الأولى لا توجد إلا بها، والسبعة الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع إلا بها، وقد يجتمع أكثرها في غيرها.

أما السبعة الأولى: فهي: قضم القريش (الصنوبر)، والسفرجل، والزيب العينوني - نسبة إلى بيت عينون في جبل الخليل -، والدوري - نسبة إلى بلدة دورا الخليل - والنجاص الكافوري، والتين السباعي، والدمشقي.

والسبعة الثانية: القلقاس، والجميز، والخرنوب، والعنّاب، والعكوب، وقصب السكر، والتفاح الشامي.

والاثنان والعشرون الباقية: ذكر منها الأترج، والنيلة، والنبق، والجوز واللوز، والهلين، والموز، والسّمّاق، والكرنب، والكمأة، والترمس، ولبن الجاموس، والعنب العاصمي، والتين الثمري، والطري⁽²⁾.

وقال الشاعر أحمد بن محمد بن المدبّر في تفضيل الشام (القرن الثالث الهجري):

(1) راحيل: أم يوسف. والصحيح أنها ماتت في مصر؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾، ولكن بعض المفسرين أخذ بقول التوراة التي زعمت أن راحيل ماتت وهي تلد بنيامين، ودفنت في بيت لحم. وكلام الله القرآن أولى بالتصديق.

(2) توفي المقدسي الذي كتب هذا الوصف سنة 380هـ. فإذا وجدنا وصفه يخالف الواقع بعد زمنه إلى اليوم، فقد يكون من التغيرات التي تحصل مع مرور الزمن، وقد يكون أخطأ في الإحصاء، أو بالغ في الوصف. فالمقدسي متعصب لوطنه بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس. . وكما قيل: حُبُّك الشيء يُعمي ويُصم. . يعني: يُعمي المحب عن عيوب حبيبته، ويضع فيه صفات تجعله متفوقاً على غيره من الأقاليم. والله أعلم.

أحبُّ الشَّامَ في يُسْرٍ وعُسْرٍ
 وكم بالشَّامِ من شرفٍ وفضلٍ
 بها عُرِرَ القبائلُ من معدٍّ⁽¹⁾
 أناسٌ يكرمون الجار حتى
 وأبغض ما حبيتُ بلاد مصر⁽¹⁾
 فقدسها على علمٍ وخُبرٍ
 وقحطانٍ ومن سرواتٍ فهِرٍ
 يجير عليهم من كلِّ وترٍ

وقال البحرني يفضّل الشَّامَ على العراق :

نصَّبُ إلى أرض العراقِ وحُسْنَه
 هي الأرضُ نهواها إذا طاب فصلها
 عشيقتنا الأولى وختنتنا التي
 عنيتُ بشرقِ الأرضِ قَدَمًا وغربها
 فلم أر مثل الشَّامِ دار إقامة
 ويمنع عنها قيظُها وحرورها
 ونهرب منها حين يحمى هجيرها
 نحبُّ وإن أضحت دمشقُ تغيرها
 أجوبٌ في آفاقها وأسيرها
 لراحٍ أغاديها وكأسٍ أديرها⁽²⁾

(1) نحن - العرب المسلمين - لا نفضل قطراً على قُطرٍ، إلا كما قيل: «اللهم هذي قسمتي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك»، ولا يصل الحدُّ إلى البغض والكراهية، ويبدو أن الشاعر قال ما قال في فورة غضب، فعمم الحكم... ونحن ننقل ما قال، ولا نعتقد بعقيدته.

(2) الشاعر البحرني يعده النقاد في الطبقة الأولى من شعراء العصر العباسي، وربما فضلوه على أبي تمام. وهو كذلك في الشعر فنياً، ولكن حُرِّم الذوق الديني أو الروحي... فهو يفضّل الشَّامَ لأن أرضه صالحة لمجالس الخمر... فهو يرى الحياةَ متعة فقط. وهذه ظاهرة تتكرر في شعره، ففي قصيدته الميمية التي يصف فيها الربيع، في قصيدة مدح، أساء التشبيه عندما وازن بين الربيع والخريف، وبين إحرام الحج، والحل من الإحرام فقال:

أحلُّ فأبدى للعينون بشاشةً
 وكان قنذى للعين إذ كان مُحرمًا
 فاستعار الحلَّ للربيع فكان جميلاً، واستعار «الإحرام» للخريف، فكان مثل القنذى بالعين. وهذا يدل على أنه لم يتذوق جمال الإحرام في الحج.

وقال في القصيدة نفسها يحرض على شرب الخمر، وسماع الغناء، يخاطب الممدوح:

فما يمنع الراح التي خلتها
 وما يمنع الأوتار أن تترنما
 وفي البيت الأخير من القطعة التي كتبها، يجعل زيارة الخليفة المتوكل سبباً في زيادة حسن الشَّام... ولو هُدي إلى الحق، لجعل حسن أمير المؤمنين قد تضاعف لحواله في أرض الشَّام الغناء... وفي قصيدة دالية يحسن للخليفة انتقاله إلى دمشق ودارياً يقول:

ولهو نفوس دائم وسرورها
ففي كل أرض روضة وغديرها
بأن أمير المؤمنين يزورها

مصحة أبدان ونزهة أعين
مقدسة جاد الربيع بلادها
تباشر قطراها وأضعف حسنها

والراح نمزجها بالماء من بردى

= العيش في ليل داريا إذا بردا

. . وفي بيت لاحق يصف الخليفة بأنه «الإمام» فيقول:

شرقاً وغرباً فما تحصي لها عددا

قل للإمام الذي عمّت فواضله

. . فكيف يكون إماماً، أو خليفة، ويشجعه شاعره على الانتقال إلى داريا؛ لأن الخمر يطيب إذا مزج

بماء بردى . . فحسبنا الله ونعم الوكيل .